النقد

« محمد »

كتاب الأستاذ توفيق الحكيم

للأستاذ محمد سعيد العريان

أيكون لي أن أكتب عن توفيق الحكيم في كتابه « محمد » بعد إذ كتب الزيات والرافعي، أم يكون من فضول القول أن يعرض مثلي لذلك وقد كتب الأستاذان الجليلان فأبلغا وبلّغا ما لا مطمح لي وراءه . . . ؟ ولكن كتاباً يصنّفه « توفيق الحكيم » عن « محمد » جدير بأن يثير الفضول، وأن يعذر من يقول فيطيل القول . . .

وما لتوفيق الحكيم ولمحمد ؟

أما المؤلف فشابٌّ من شباب هذا الجيل درّس دراسة أهله في هذه المدارس الدنية التي تقول لمن يدخلها « أنت لست من هذه الأمة التي نَسَلَتْ من العرب، واهتدتْ بهدْي الإسلام، ونمَتْ من روح الشرق وسرّ روحانيته؛ فاذهب فالتمس أمةً غير أمتك تفخر بمجدها وتباهي بماضيها . . . ! »

وأما « محمد » فهو ذلك السرُّ الأعلى الذي يستغلق على من لم يتصل بروحانية هذا الشرق، ويَغْمض على من لم يتعرف سرّ هذا الدين، ويستخفي على من لم ينشأ موصول النسب بتاريخ الأدب القديم . . . وأين توفيق الحكيم من ذلك . . ؟

على أن هذا البون البعيد بين توفيق الحكيم وتاريخ « محمد » هو الذي دعاه إلى أن يمدّ نظره إلى بعيد يتنوّر هذا السرّ من مطالعه، ويستشرف لهذا النور من مشارقه ! فحياة محمد كانت الى قريب وقفاً على طائفة من أهل العلم، لا يتناولها إلا من أوتي كثيراً من الصبر على المعاناة في استخراجها، وكثيراً من القدرة على تنقيتها من فضول القول وحَشْو الرواة ونَفْو القُصّاص، وقلّ من يملك القدرة والصبر على مثل ذلك؛ ثم جاءت طائفة من كرام العلماء فجهدوا جهدهم في جلاء هذا التاريخ والكشف عنه فكتب المرحوم الخضري بك، وكتب جاد المولى بك، وكتب الدكتور هيكل، وكتب رضا، فبلغوا مبلغهم في ذلك، واستطاع الناس أن يقرأوا « السيرة » كما ينبغي أن تُقرأ، وأن يعرفوا من تاريخ الرسول ما لم يكن يعرف إلا الخاصة من علماء هذا الدين ولكن أنُرى هؤلاء العلماء — على ما بلغوا من التوفيق في جاهدوا، وما أصابوا من الاجادة فيما عملوا — قد استطاعوا أن يحملوا واحداً لا يهتم بسيرة الرسول على أن يقرأ سيرة الرسول أو دعوا نفراً من شبابنا الذين لا يحسنون إلا اللهو والعبث إلى التماس الجد في حياة محمد وابتغاء المُثُل العليا في تاريخه . . . لو أن واحداً من هؤلاء الشباب قرأ شيئاً من ذلك لأفاد وانبعث نفسه، ولكن أين ما يحمله على أن يقرأ . . . ؟ إن هذه الكتب على ما أُجدّت قد عجزت أو كادت عن اجتذاب هذا النوع من الشباب الذي لا يعرف شيئاً عن محمد ولا يهتمّ أن يعرف؛ ولكن لرجل الفن سبيلا غير ذلك، وقد عرف توفيق الحكيم سبيله

* * *

قصد المؤلف من كتابه الى عرض حياة الرسول الكريم عرضاً يكشف عن دقائقها ويجلو صورها على أسلوب من الفن بعيد عن فلسفة العالم وتحقيق المؤرخ، على أن فيه الفلسفة وفي التاريخ كما ترى الحادثة بصورتها في حياتنا العادية مرئية مسموعة تفعل فعلها في النفس وتترك أثرها الفني من غير تعليق ولا بيان؛ والأستاذ توفيق في فنّه باعٌ وذراع . . . فهو قد درس « القصة » دراسة العلم، وفقهها فقْه الأدب، وعالجها علاج الفنان المبتكر، وانتج فيها إنتاجاً سيخلد به بين أدباء العربية ولا أغلو إذا قلت إنني لم أقرأ حواراً تمثيلياً في العربية يعجبني ويلذّني مثل حوارٍ يصنعه توفيق الحكيم

بهذه القدرة الفنية قرأ توفيق ما كتب القدماء عن السيرة ، بحاسة الفنان تمثلت له (مناظرها) كما نقلها فى كتابه . وهو ضرب من الرواية لا نستطيع أن نضع له اسما من أسماء الرواية ، هو ليس قصة ، وهو ليس رواية ، وهو ليس ترجمة تاريخية ، ولكنه منها جميعاً ؛ وهو مناظر حواريّة ، يباعد بينها الزمان والمكان ، وتجمع بينها وحدة الموضوع والغرض ؛ على أنه ليس يؤلفها شيء من لغة الحوار ولا أسلوب الكلام ، فليس له منها كثير مما المصوّر يرسم لك جزءاً من الزمن فى ورقة ، لا ينقل اليك الزمان الماضي ولكن ينقلك اليه ، فاذا أنت ترى منه أكثر مما تريك الصورة ، وتسمع منه ما لا يُسمعك الرسم الصامت

ولا شك أن المؤلف قد جهد جهداً غير يسير فى إخراج كتابه على ما يشتهى ، فهو نوع لم يُسبَق اليه ، وبابٌ اخترعه فى فن الرواية ليس له حدود مرسومة تهديه السبيل ؛ هذا إلى أن الموضوع دقيق ، يقتضى الصبر والأناة وحسن الاحتيال ؛ وما ظنك بالكاتب المسلم يؤلف شبه رواية عن محمد ، يجرى الكلام فيها على لسانه من غير أن يخترع أو يتزيّد ؛ ثم هو مع ذلك يحاول أن يرضى الفنّ ويَسلم بدينه فى وقت معا . . . ؟ ولكن المؤلف بسبيل هذا الفن قد تصرّف فى موضعين : أما أولهما فانه كان يجد بعض ما روى عن النبي محكياً بلغة الخبر لا بلغة الحديث ، واتجاهه فى الموضوع أن يجعل القصة حواراً : كلاماً يجيب كلاما ، وخبراً يرد على خبر ، فلم يجد أمامه إلا أن يترجم الخبر إلى لغة الكلام لتستقيم له طريقه فى الأداء . فمن ذلك مثل ماتقول كتب السيرة : « استأذن فلان على النبي ، فأذن له . » يؤديه المؤلف حواراً كما يلى :

— : إيذَن لفلان يارسول الله ...

— : أذِنت

وهذا وإن لم يكن قولَ النبي — لأن عبارته فى الاذن لم تنقل إلينا فى الحديث — جائزٌ فيما أراه ، فهو بابٌ من رواية الحديث بالمعنى ، وقد أجازها رجاله . على أن هذا النوع فى الكتاب قليل جداً لا يتجاوز بضع عبارات ؛ ولعل أطول عبارة أجراها المؤلف على لسان النبي ، هى ذلك الدعاء الذى ترجم له كتاب السيرة بقولهم : « كان النبي صلى الله عليه وسلم يتحنّث فى غار حراء ... » فرأى المؤلّف من تمام موضوعه أن يجعل على لسان النبي كلاماً يدعو به ربّه فى تحنُّثه (ص ٣١) ، وأحسب أن المؤلف كان كثير الحرج فى مثل ذلك ، فانى لأحسّ فى أكثر من موضع من الكتاب أن كلاماً هناك كان ينبغى أن يقوله محمدٌ فلم يقله (المنظر الثالث ف ١ ، النبي وورقة بن نوفل ص ٣٧)

أما الموضع الثانى الذى تصرف فيه المؤلف ، فى ترتيب مناظر الكتاب ، فهو لم يلزم الترتيب الزمنىّ الذى جرت عليه السيرة ، فقدّم وأخر ، ومازج حوادثَ وحوادث ؛ وليس فى هذا — على إجماله — ما يعيب المؤلّف ، فهو لم يقصد إلى أن تكون للكتاب وحدةُ القصة ، بحيث تبنى حادثة على حادثة ، وتأتى مقدّمة بنتيجة ، بل جرى على أن يجعله مناظر يُعطى كلٌّ منظر منها أو مناظر صورة خاصة لفكرة أو حادثةٍ بعينها ، ثم أن يكون للقارىء من مجموع هذه الصور فى النهاية ، صورةٌ محدودة للنبيّ الكريم كما يجب أن يعرفها المسلم

الآن قد فرغت من عرض الكتاب كما أراد مؤلّفه وكما دلّنى على نفسه ، وإنى لأشهد أن مؤلّفه قد وُفّق توفيقاً كبيراً فيما حاول ، وبلغ بهذا الكتاب مالا يبلغ غيره ؛ وما أحسب أن لى فى هذه الناحية أن أتكلم عن توفيق الحكيم فى فنه ، فمن للعربية فى فن الرواية مثل توفيق ؟ على أن هذا الكتاب بابٌ جديد هو زادَه وأنشأه فى فن القصة ، فمن الفضول أن تقول له : أنت اخترعتَ وأنت لم تبلغ حدّ الكمال . . . !

ولكن طابع توفيق الحكيم وشخصيته الفنية لم يكونا ظاهرين مميزين فى أسلوب الحوار وفى تساوُق القصة ظهورهما وتميزهما فى سائر ما ألّف . وسرُّ ذلك واضح ، فهو هنا لم يضع الكلام ، ولم يخترع الحادثة ، بل نَقل وصنّف ، وداخل ومازَج ، وإنما تجد طابعه وشخصيته حيث يجد لنفسه الحرية فيما يقول أو فيما يضع : (إقرأ الحوار بين إبليس والهية ص ١٥٣ — ١٥٧ ، وموت أبى طالب ، وغزوة بدر ، وحديث الأفك ، وحديث الغيور) فانك واجد فيها وفى كثير غيرها روحاً وحياة وفناً ، فكأنك معها ترى وتسمع وتحسّ

وأكثر الكتاب من لغة الرواة ، لاءم بينها المؤلف ما استطاع ليربطها على أسلوب من البيان منسجم ، فأىّ جهد

حمل من ذلك ؟ . . . ولكن عبارات وكلمات نقلت على غير وجهها مما أخطأ الأقدمون فى نسخه ، وعبارات وكلمات جاءت متداخلة من وضع المؤلف ، فأخلّت بنظم الكلام فى غير موضع ، ونبا بها مكانها من ذلك البيان العربى الشرقى . على أن ذلك لا يعدو بضع عشرة كلمة فى الكتاب كله ، فما نراها إلى جانبه بشىء ذى بال

وقد كان جهد المؤلف كبيراً فى ربط الروايات المختلفة والتوفيق بينها ، ليخلص منها إلى الرأى الذى يرى ؛ وكان إلى ذلك حريصاً على أن تكون (المناظر) قليلة بقدر ما يتأتى له ، فجاء من ذلك أن يجعل الحوار فى منظر واحد لأكثر من موضوع ، وإذ كان الحديث كلّه بين المتحاورين من الآثار المروية — لم يغير ذلك شيئاً من نصّ الكلام كما نقله السلف ، ولكنه غير جوّه فتغير من ذلك مدلوله ؛ فمن ذلك حديث النبى عن زوجاته فى الجنة ، إلى خديجة وهى تحتضر ، (وفاة خديجة ص ١٠٠) ؛ ومنه حديث : « حُبِّب إلىّ الطيب والنساء » روايته على مسمع عائشة فى غيرتها المشبوبة وقد جاءها النبى يهمّ أن يتزوج جويرية بنت الحارث . . . !

وجاء فى خبر عثمان بن مظعون أن ملاحاةً كانت بينه وبين لبيد بن ربيعة قبل هجرته إلى الحبشة ، وأحسب ذلك كان بين الهجرتين ؛ فقد كان عثمان على رأس الفوج الأول إلى الحبشة ، ثم عاد فاستجار الوليد بن المغيرة حيناً ، ثم خلع جواره ، وكان بينه وبين لبيد الشاعر ما كان بعد خلعه جوارَ الوليد ، ثم هاجر ثانية إلى الحبشة (ص ١٠٥)

ونقل الكتاب فى حديث الإفك (ص ٣٧٦ — ٣٧٧) أن أمّ مِسْطح قالت : تَعِس مسطح . إذ وجدت ما وجدت فى وجه عائشة من إعياء المرض ؛ والذى أذكره أن أم مسطح قالت ذلك لغير هذا السبب ، ولا أرى داعية للعدول عن المأثور فى الرواية

أما بعد ، فما حاولت بما أسلفت أن أنقد ، ولو أننى حاولتُ لما وجدت ؛ وإنما أذكر هذه الهنات كشهادة على براعة الكتاب وكماله ؛ وحسْبُ توفيق الحكيم أن يخرج كتاباً عن محمد على نهج جديد فى الفن ، ثم لا يجد الناقد فيه غير ما قدّمت ، وإنه لتوفيقٌ من الله أن يتهيأ لحياة محمد أديب كبير مثل توفيق يربط أسمى ما فى الفن بأقدس ما فى تاريخ الإسلام . وما أحسبنا — وهذا الكتاب بين أيدينا — سنشكو القطيعة بعد اليوم بين شبّاننا الذين يعشقون الجديد ويقدرون الفن ، وبين سيرة النبى الكريم . وإنى وقد فرغت من قراءة هذا الكتاب منذ قليل لأشعر بالحنين إلى الساعات السعيدة التى قضيتها منه كأنى أعيش فى عصر النبوّة ، وما أرى هذا الحنين سينقضى حتى أعود إلى الكتاب فأقرأه مرة ومرة ومرات ، حتى أروى بما بنفسى من ظمأ إلى هذا الكوثر العذب ، وعسى أن أشعر بعدُ بأنى شربت حتى رَوِيت . . .

(شبرا) محمد سعيد العريان

وزارة المعارف العمومية

إعلان مسابقة

عن الحاجة إلى كتب دراسية

تعلن الوزارة عن حاجتها إلى كتاب فى الجغرافية باللغة العربية لكل سنة من السنتين الأولى والثانية بمدارس النجارة المتوسطة وكتاب فى التاريخ باللغة العربية أيضاً للسنة الأولى بهذه المدارس ، على أن توضع هذه الكتب وفقاً للمنهج الجديد لهذه المدارس ، وطبقاً للتوجيهات الموضوعة والموجودة منها صور بإدارة المخازن تحت طلب المؤلفين — وأن تقدم للوزارة فى ميعاد غايته آخر مايو سنة ١٩٣٦

والكتب التى يقع عليها الاختيار ستشترى الوزارة حق تأليفها وفقاً للقرار الوزارى رقم ٣٧٥١ الذى يمكن طلبه من ادارة المخازن أو الاطلاع عليه بها

وكل كتاب تقرره الوزارة وتشترى حق تأليفه بعد أن تعدله لجنة الفحص تعديلا ذا شأن سيخصم من مبلغ شراء حق تأليفه عشرون فى المائة تمنحها الوزارة مكافأة للجنة على عملها — أما الكتاب الذى يتقرر بغير تعديل أو بتعديل غير ذى شأن فلا تمنح اللجنة مكافأة عنه